الفصل الحادي عشر

الإنجليزية والأدب والسياسة
English, Literature and Politics

- ما هي السياسة وما علاقة الإنجليزية بها؟
- كيف تتغلغل قضايا العرق والنوع في دراسة الأدب؟
- ما هي أساليب تناول مدارس النقد لقضية الأدب والسياسة؟
- لماذا أضحت الإنجليزية ساحة للجدل السياسي؟

تتعدى دراسة الإنجليزية حدود اكتساب المهارات اللغوية الأساسية فيشير إيفور جودصن Ivor Goodson و بيتر ميدواي Peter Medway في كتابهما "علاقة الإنجليزية بالنظام" Bringing English to Order (١٩٩٠م) إلى أنَّ "الإنجليزية كانت الأداة التي استطاعت الجماعات القومية خاصة الحكومات تحقيق أهدافها "غير التعليمية "أو المحايدة من خلالها". ويصور هذان الكاتبان الإنجليزية على أنها "ساحة قتال" تتصارع فيها "أطماع ومخططات الأحزاب السياسية" لأن الإنجليزية كانت دائماً شديدة الصلة بالمناظرات والقضايا السياسية.

الإنجليزية والسياسة/المدينة

English and the Polis

لكن ماذا يقصد بالسياسة في هذا السياق؟ غالباً ما تشير الكلمة إلى الأحزاب المالكة للسلطة أو الانتخابات الأخيرة أو القادمة أو السمات الشخصية للأشخاص العاملين بالسياسة عندما يتطرق الحوار إلى كلمة "سياسة"، بيد أن السياسة لا تقتصر على ذلك فقط: فالكلمة مشتقة من الكلمة اليونانية القديمة polis والتي تعني "مدينة"، وقد دخلت تلك اللفظة في كلمات مثل metropolitan أي "خاص بالعاصمة" و metropolis أي "العاصمة" وكذلك كلمتا police officer "ضابط شرطة" و politician "رجل سياسة" اللتان أشارت إليهما شخصيات رواية "رجال متصارعون" Men at Arms للكاتب الإنجليزي تيري براتشت Terry Pratchett (المولود عام ١٩٤٨م)، إلا أن الكلمة تشير لما هو أبعد من ذلك مثل "الجماعة" أو "المجتمع" حيث تُعنَى السياسة بالناس والمجتمعات وأسلوب تعامل الناس فيما بينهم وليس مجرد أحداث في مناطق ويستمنستر Westminster أو بروسيلز Brussels أو الكونجرس Capitol Hill، لذا فهي تشمل قطاع كبير من حياة البشر و بما أن الأدب يتغلغل بدوره في حياة الناس والمجتمعات وأسلوب تعاملنا سوياً ، فالصلة بين الأدب والسياسة قوية و ذلك لوجود قضايا مشتركة فيما بينهما.

لقد أوضحت سابقاً كيف استطاعت الإنجليزية صهر الناس معاً وتلك عملية "سياسية" بحتة آتت أُكُلَها في المستعمرات الإنجليزية ومازالت حتى يومنا هذا. يظهر ذلك جلياً في التنظير القاضي بتحديد ما يجب على الناس قراءته وما لا يجب وما هي الأعمال الأدبية المرجعية، وكيف يجب أن يتحدث الناس وكيف يخطون

بأقلامهم على الورق، أو حتى تحديد نظريات للتقييم، فكل ذلك ما هو إلا "تنظير يقضي في حقيقته بتشكيل نظرة الناس للعالم في إطار محدد" (كما يشير لذلك روبرت بروثيرو Robert Protherough وجوديث أتكنسون Judith Atkinson في إسهامهما بكتاب "تدريس الإنجليزية" Teaching English لسوزان برندلي Susan Brindley الصادر عام ١٩٩٤م). أما بريان كوكس فيتميز كتابه "آراء كوكس في معركة منهج الإنجليزية" Cox on the Battle for the English Curriculum (١٩٩٥م) بالدقة والتخصص حيث يقول: "تؤدي السيطرة على المناهج القومية إلى التحكم في الطريقة التي يفكر بها أبناؤنا، ومن ثم تفرض مناهج الإنجليزية القومية تأثيرها على اتجاهات الطلاب نحو مفاهيم الطبقة الاجتماعية والجماعات العرقية". وسواء أكانت دراستك للإنجليزية كمادة دراسية ترتبط بالنمو الشخصي أو باكتساب مهارات تخدم سوق العمل أو بالتعامل مع أفراد المجتمع أو ترتبط بفهم التراث الثقافي وتحليله، فلا ينفي ذلك اتصاف الإنجليزية بأنها مادة شديدة الصلة بالسياسة مما يؤثر بشدة على نمط حياة الناس.

لكن ارتباط الإنجليزية كمادة دراسية بتلك القضايا والأطروحات الخاصة بتعامل البشر يرجع إلى أن دراسة الأدب تعد واحدة من المواد القليلة التي تُدرس فيها التجربة البشرية الفردية بشكل جدي كحقل معرفي يمكن تعلمه والإلمام به، فعمود الأدب الفقري هو ما أشار إليها الناقد روبرت يونج Robert Young بقوله "القيمة والاهتمام الذي يعطيه للجوانب الشخصية الذاتية من الحياة البشرية". وعلى الرغم من تناول الدراسات الإنسانية الأخرى كالتاريخ والجغرافيا لما يقوله أو يكتبه الناس، إلا أنها تتوسل بذلك كدليل داعم للعمل التاريخي أو الجغرافي، وما تخلص إليه تلك الدراسات يختص بتطور دولة مثلاً أو استخدام مظاهر السطح في مدينة

ما، أما في الأدب الإنجليزي فالمعرفة تنصب على التجارب الشخصية. ويكمل يونج رأيه قائلاً: إذا كان هناك "الكثير من الدراسات عن تاريخ الاستعمار...فقلما تعرض تلك الدراسات لأشكال معاصرة الاستعمار أو تحليله من قِبَل من عانى ويلاته"، وكذلك الحال في كل الموضوعات والقضايا الأخرى، فها هي روايات تشارلز ديكنز تزيد من وعي الناس بما ألَمَّ بفقراء لندن من فاقة ومصائب إبّان القرن التاسع عشر مما أدى إلى إحداث قدر من التغيير على المستويات السياسية والاجتماعية. وحديثاً ساعدت الدراسات التي تناولت المرأة وتجاربها في نصوص أدبية على إلقاء الضوء على قضايا طالما كانت رهن الظلمات وكذلك على وجود مناقشات حول أسلوب تعايش الناس رجالهم ونسائهم سوياً.

إلا أن طرق قراءتنا على اختلافها قد تجعل من العسير علينا أحياناً إدراك هذه الجوانب في النصوص، فمثلاً لعبت قضايا الجنس العرقي والسياسة والأدب دوراً مهماً في الولايات المتحدة في العشرين عاماً المنصرمة تقريباً. من هنا نجد أن إعادة تقييم الأعمال الأدبية المرجعية كانت خطوة على طريق فهم تجارب الأمريكان من أصل إفريقي، وكما أشرت في الفصل الخامس إلى ما أورده النقاد الأفارقة بأن بعض الأوروبيين نظروا لكتاباتهم –أي الأفارقة– على أنها "هراء عرقي اجتماعي دعائي زائل"، كان من الضروري إيضاح أن كثيراً من كتابات الأمريكان من أصل إفريقي هي "نصوص أدبية" ذات قيمة كبيرة كمصدر لدراسة تجربة زنوج أمريكا مع العنصرية حيث ساعدت كتابات الناقد الأمريكي من أصل إفريقي الشهير هنري لويس جيتس Henry Luis Gates على زيادة الاهتمام بتلك القضية عندما قدم جيتس وآخرون منهجاً أكثر تلاؤماً مع هذه النصوص خاصة عندما أدركوا أن معظم الطرق التقليدية في تفسير النصوص الأدبية اتسمت بالطابع

"الغربي" للغاية وأنها تنبثق من أيديولوجيات مسبقة مما يعني أنها لا تلقي بالاً لأهمية أدب الأمريكان من أصل إفريقي ولا لقضاياهم. ويركز جيتس على فكرة "التحديد" signifying؛ أي وصف أسلوب إعادة استخدام نصوص ودمج نصوص أخرى للوصول إلى أسلوب مميز لزنوج أمريكا في رؤيتهم للعالم وانخراطهم فيه وتعاملهم مع باقي البشر. والنتيجة الحتمية من وجهة نظر جيتس لعرض تجارب السود الأمريكان وتقييمها وفهمها بشكل صحيح هي الوعي بالحاجة الماسة لتغيير سياسي واجتماعي على نطاق واسع.

إذا ما استرجعنا ما تم عرضه في هذا الكتاب سنجد أن أغلبه قد تناول العلاقة بين السياسة polis والإنجليزية، وأشرت آنفا كيف قامت "الأعمال الأدبية المرجعية" بدافع سياسي إضافة للحاجة لوجود منهج ثابت كما أوضحت كيف تم استخدام شكسبير لأغراض سياسية، وتناولت في الفصل العاشر علاقة الهوية القومية بالثقافة الإنجليزية وأن التغييرات التي طرأت على الإنجليزية كانت استجابة لأفكار جديدة كالمتجمعات والهوية القومية؛ لذا آثرت الآن أن أدرس علاقة السياسة بالاتجاهات النقدية التي أثَّرَت على أساليب فهم وتفسير الأدب والتي عرضت لها في الفصل الرابع.

الاتجاهات النقدية والسياسة
Critical Attitudes and Politics

على الرغم من التداخل بين السياسة والأدب إلا أن كيفية حدوث ذلك التداخل مازال موضع شك وتساؤل، لذلك فمن الأفضل أن ندرسه متوسلين بالاتجاهات النقدية العامة التي ناقشناها في الفصل الرابع وقلنا إن "المنهج الخارجي extrinsic approach يتحرك من النص إلى السياق على أساس أن الأدب تجسيد

للعالم ويستمد أهميته مما يخبر به عن العالم، في حين يركز "المنهج الداخلي" intrinsic approach على النص ذاته من حيث شكله وأسلوب نظمه على افتراض أن كل النصوص خاصة "العظيمة" منها تتمتع بقيمة أدبية داخلية مما يجعلها جديرة بالدراسة في حد ذاتها. لذلك يتمخض هذان الاتجاهان عن فهم مختلف للعلاقة بين السياسة والأدب.

المنهج الخارجي: هل الأدب نوع من السياسة؟
The Axtrinsic Attitude: Literature as Politics?

لن يجد أصحاب الاتجاه الخارجي حرجاً عند تفسير الأدب من الناحية السياسية طالما أن النصوص الأدبية تجسيُّد للعالم فهي تتناول تعاملات البشر فيما بينهم وهو لُب السياسة. ويضرب بعض النقاد مثلاً بعرض النصوص لأفكار عن سياسة العصر التي كتبت فيه أو أفكار المؤلف السياسية، وإذا لم تلائم أفكار الكاتب سياق التفسير، يذهب المنهج الخارجي للقول بأن "صوت التاريخ" هو المتحدث من خلال النص ليكشف (دون علم المؤلف) عدداً من الأفكار والمسلمات السياسية، بينما يركز آخرون من مؤيدي نفس المنهج الخارجي على أشكال استخدام النصوص كالاتجاه المادي الثقافي في أعمال شكسبير بالبحث في عرضها للاهتمامات السياسية والثقافية والاقتصادية المعاصرة. من هذا المنطلق ينظر للأدب وطرق تفسيره على أنه أداة سياسية تدرس من ناحية أثرها على المستقبل أو الماضي فيظهر دور الناقد في المنهج الخارجي في كشف الجوانب والاتجاهات السياسية التي لا ينبئ بها النص.

يفهم الكثيرون من أصحاب المنهج الخارجي الإنجليزية على أنها "السياسة الثقافية"، لكنه مصطلح عام وسطحي في تناول العلاقة بين السياسة والثقافة حيث

تتواجد السياسة –بمعنى أنها تعامل البشر فيما بينهم– في كثير من الدوائر الثقافية المختلفة فهناك السياسة القومية والسياسة الإقليمية والسياسة المحلية. ومن ناحية أخرى ترتبط السياسة بمجالات مختلفة كدراسة ما يقوم به الناس وأين هم، فقد تسمع مثلاً مصطلح "سياسة العمل" أو "سياسة مضمار اللعب"، وكذلك الحال بالنسبة للثقافة فهي أمر سياسي يمنحنا إحساساً بمن نحن وكيف يجب أن نكون وقد اتضح ذلك من مثال "الثقافة القومية" الذي أوردته سابقاً. كما تتداخل الثقافة أيضاً مع السياسة: مثال ذلك ما "للأعمال الأدبية المرجعية" من عواقب سياسية على الرغم من كونها فكرة "ثقافية" بحته (ما هي الأصوات المسموح لنا أن نسمعها؟ وماذا تقول؟)، وبالمقابل فالأفكار السياسية مثل "الكل سواسية" لها آثار ثقافية (هل سيلقَى فيلم يدعو للتفرقة بين الناس قبولاً؟ وهل سيحقق أي نجاح؟) أي أن "السياسة الثقافية" تعني مدى انعكاس السياسة في الثقافة والعكس بالعكس. وإذا ما اعتبرنا الأدب الإنجليزي صيغة للسياسة الثقافية، فسيتحول كل نص ندرسه إلى حدث سياسي يحاول إقناعنا بأفكار معينة عن ما يجب أن يكون عليه أسلوب تعاملنا سوياً.

يذهب بعض الناس إلى القول بأن السياسة الثقافية هي محور دراسة الأدب الإنجليزي، ويعرف هذا الاتجاه في التربية أحياناً 'بمحو الأمية النقدية'، فهي ويندي مورجان Wendy Morgan تقول في كتابها "محو الأمية النقدية داخل قاعات الدراسة" Critical Literacy in the Classroom (١٩٩٧م) بأن وظيفة مدرس الإنجليزية ونقاد الأدب هي استكشاف وكشف اللثام عن "الأيديولوجيا المحركة للنصوص...ودراسة سياسة العرض الأدبي...وتوجيه أصابع الشك للوضع الثقافي الظالم للمتحدثين والقراء". بيد أن الاتباع الأعمى لهذا الاتجاه الفردي –على

أهميته— قد يؤدي إلى استبدال "أسلوب في دراسة الأدب الإنجليزي" بأسلوب آخر ليس إلا.

المنهج الداخلي: هل الأدب ينافي السياسة؟
The Intrinsic Attitude: Literature Versus Politics?

خلافاً للمنهج الخارجي نجد أن المنهج الداخلي يوحي بفهم مغاير للعلاقة بين المجتمع والأدب، فيرى أصحاب المنهج الداخلي أن التعامل مع الإنجليزية على أنها محض سياسة ثقافية يجرد العمل الأدبي من "أدبيته"؛ لذا تقوم دراسة الإنجليزية وآدابها لديهم على التركيز على السمات والخصائص المميزة التي تجعل العمل الأدبي قطعة فنية عظيمة فيلقون اللوم على من يهتم بإقحام علم الاجتماع والرسائل الجدلية أو الغرض الاجتماعي في النص الأدبي مما مكنهم من القول بأن الأدب مضاد للسياسة ولأسلوب الناس في استخدام القوة.

أثارت تلك الفكرة جدلاً كبيراً ولاقت نقداً أكبر، فهي توحي بضرورة تناولك للنص على أنه موجود "في فراغ" بمعزل عن العالم، كما توحي بأن الأحكام الصادرة على القيمة الأدبية تتأثر بآرائك ومعتقداتك الأخرى. قد يقدم العمل الأدبي مثلاً وجهة نظر ما عن المجتمع الذي تعارضه أنت كلية في حين تُقيِّم العمل بأنه عمل عظيم، وبذلك نجد أن هذا الاتجاه يفترض هو الآخر أن الأدب يتضمن أسلوب تعايشنا سوياً، وإذا كمنت قوة الأدب في أساليب التعبير عن الخبرات وتكوينها، فإن الأعمال الفنية العظيمة فقط هي التي يمكنها ذلك؛ لذا يذهب بعض مؤيدي المنهج الداخلي للقول بأن الأدب "يعلِّم الأخلاق" ويجسد "النفس البشرية". يفضي بنا ذلك إلى القول بأن دراسة الأدب هي دراسة للسياسة بمعناها الأشمل طالما أن هناك من ينادي ويرعى تلك الآراء.

لماذا أضحت الإنجليزية ساحة للصراع السياسي؟
Why has English Been a Bolitical Battleground?

ويبقى السؤال: لماذا يحتدم الجدل بين السياسيين والمعلمين والأكاديميين والصحفيين وغيرهم حول مادة الإنجليزية؟ هناك عدة أسباب لذلك أهمها أن الإنجليزية واحدة من أوسع المنتديات التي يصادف الكثيرون فيها منهجاً منظماً يتناول القضايا الثقافية مما يزيد اختلاف بل وتصادم الآراء حول الإنجليزية كمقرر دراسي إجباري سواء على المستوى العالمي أو داخل المملكة المتحدة. وكما أسلفت فإن النشاط الثقافي خاصة التعليم يلعب دوراً واسع النطاق في تشكيل أفكارنا المتعلقة بالهوية والهرم الاجتماعي وكذلك السيطرة عليها مما يؤثر على نظرتنا للعالم. ولدراسة الأدب كجزء من الثقافة بوجه عام أثرٌ فعال في تشكيل الشعوب لما يعرض من خبراتهم بوضوح وجلاء مما أدى إلى لجوء الكثيرين للإنجليزية كأداة لتشكيل الأفكار وإقناع الآخرين وإحداث تغييرات اجتماعية.

أصبحت عملية التشكيل والصهر أكثر أهمية الآن لأننا نعيش في عصر التواصل والاتصال الجماعي بحيث أصبحت فيه طريقة عرض الأشياء غاية في الأهمية. وإذا استشهدنا بموضوع الأعمال الأدبية المرجعية الذي تناولناه في الفصل الخامس مثلاً، نجد أن إدراج أعمال من كان ينظر إليهم على أنهم أقلية (كنصوص الكاتبات الأمريكيات من أصل إفريقي) يعد شكلاً من أشكال التمثيل للجماعات السياسية، كما تقدم دراسة النصوص غير الرسمية تمثيلاً أوسع وأكثر تفتحاً للعالم في القائمة المرجعية للأعمال الأدبية، ونتيجة لذلك تساعد على منع التعامل بعنصرية مع الناس ليس فقط عند تناول ماهية "الأدب"، ولكن عندما نفكر في ماهية

"المجتمع" أيضاً، مما حدا بالكثيرين من مؤيدي هذه القضايا إلى اللجوء للإنجليزية جاعلين منها منبراً لطرح آرائهم.

يحتدم الجدل بشأن الإنجليزية أيضاً لأنها واحدة من أهم المواد الدراسية، ولا يعني ذلك أن الإلمام بشكسبير وأعماله مثلاً أهم من التفوق في مادة الرياضيات (فلا تفاضل بينهما) لكن نقولها ببساطة أن الإنجليزية تمحي الأمية وتكسب المهارات التفسيرية التي تقوم عليها المواد الأخرى فهي تشبه "الجندي المجهول في العمل" الذي يقدم المادة الخام والمهارات الداعمة لمختلف أنظمة بيئة العمل، مما يعني أنه إذا حاول أي شخص أكان سواءً —سياسياً أو معلماً أو أكاديمياً أو إعلامياً— تغيير النظام التعليمي ككل فعليه أن يبدأ بالإنجليزية. وكما يشير إيفور جودصن وبيتر ميدواي فإن "تغيير الإنجليزية هو تغيير للنظام المدرسي"، من هنا تصبح الإنجليزية "أنبوبة اختبار" للسياسة التعليمية وكذلك "دوارة رياح" تحدد أي الأفكار أقوى وفي أي عصر تعليمي. قد يشرح ذلك ردة الفعل القوية لأولئك المهتمين بالتعليم تجاه أي تغييرات مقترحة في مقررات اللغة الإنجليزية.

تجعلنا دراسة الإنجليزية وآدابها أكثر حساسية نحو "أسلوب تعاملنا سوياً"، وكذلك نحو السياسة polis، لذلك فهي تعني الارتباط بالآخرين من خلال الأدب واللغة فتقودك لكشف اللثام عن أفكار مغايرة لأفكارك ومعتقداتك وكذلك عن طرق جديدة للتعاطي مع مكونات العالم، وقد نفكر أن القراءة نشاط خاص انعزالي لكننا نكتشف أنها توطد العلاقات بينك وبين الآخرين في هذا العالم، لذلك تعد من أحد الأنشطة الاجتماعية السياسية التي يمكنك القيام بها.

ملخص

Summary

• يمكن تعريف السياسة بمعناها العام على أنها "أسلوب تعايش الناس سوياً" وتتناول الإنجليزية الأيديولوجيا الاجتماعية ومكاننا في العالم في ثنايا تناولها للأدب، فكلاهما متصل بالآخر ومتغلغل فيه ليس فقط للطريقة التي يتعامل بها الأدب مع خبرات وتجارب الفرد.

• يرى أنصار المنهج"الخارجي" extrinsic في النقد أن النصوص تعكس العالم، وأن الإنجليزية شكل من أشكال "السياسة الثقافية" أي أنها حلقة الوصل بين السياسة والثقافة. أما أنصار المنهج "الداخلي" intrinsic فيعارضون هذا الطرح مع اعترافهم بالعلاقة بين الأدب ونظرتنا للعالم ومكاننا فيه، مما يجعل "الإنجليزية" نشاطاً سياسياً سواءً أدرك هؤلاء ذلك أم لا.

• أصبحت الإنجليزية ساحة جدل لأنها مادة سياسية المنشأ، وتعد قضايا عرض أفكار الجماعات السياسية في مقررات الإنجليزية في غاية الأهمية في هذا "العالم الفسيح" مما يحيل مادة الإنجليزية بأن تكون ملاذاً لكل المهتمين بتلك القضايا. بالإضافة لذلك تلعب مهارات التفسير التي تكسبها الإنجليزية للطلاب دوراً الأساساً في مواد دراسية أخرى لذلك على كل من يرغب في تغيير النظام التعليمي أن يتخذ من الإنجليزية نقطة البدء في ذلك.